

جدلية الضوء والظل وأثرها في بناء المعنى في رواية ملمس الضوء لنادية النجار — دراسة دلالية

جهانكير أميري

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، إيران.

محمد نبي أحمد

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، إيران.

طه صالح محمد

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة رازي، إيران.

The Interplay of Light and Shadow and Its Impact on Meaning Construction
in Nadia Najjar's Novel "The Touch of Light" — A Semantic Study

Jahangir Amiri

Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities,
Razi University, Iran.

Muhammad Nabi Ahmadi

Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities,
Razi University, Iran.

Taha Saleh Mohammed

Master's Student, Department of Arabic Language, Faculty of Arts and
Humanities, Razi University, Iran.

Gaamiri686@gmail.com

Mnabiahmadi@razi.ac.ir

Thalsalh56@gmail.com

الملخص

تتناول هذه الدراسة جدلية الضوء والظل بوصفها بنية دلالية مركزية في رواية "لمس الضوء" للكاتبة الإماراتية نادية النجار الصادرة عام ٢٠٢٤، وهي رواية استحوطت الوصول إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) عام ٢٠٢٥، مما يؤكد ثقلها الأدبي وأهميتها في المشهد الروائي العربي المعاصر. وتسعى الدراسة إلى الكشف عن الأثر العميق الذي تتركه هذه الجدلية في بناء المعنى على مستوياته المتعددة؛ الرمزية والوجودية والإنسانية، من خلال تتبع آليات اشتغالها في مستويات النص المختلفة، من الشخصية والمكان والزمان إلى اللغة والرمز والاستعارة. وتتطلب الدراسة من تصور نقدي راسخ يرى أن الضوء في الرواية لا يمثل ظاهرةً حسيّةً مجردةً مرتبطةً بالإبصار والرؤية الفيزيائية، بل هو نظام رمزي متكامل يُحيل إلى البصيرة والمعرفة الداخلية والانبعاث الوجودي. في حين يمثل الظل فضاءً دلاليًا مشحونًا بالغياب والفقد والمعاناة والنتية. وهو ما يجعل البطلة نورة، وهي كفيفة منذ طفولتها، نموذجاً سردياً فريداً؛ إذ تجسد في آن واحد الظلام بوصفه واقعاً جسدياً، والضوء بوصفه حقيقةً روحيةً ومعرفيةً يفترق إليها من يُبصرون. وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي أداةً منهجيةً رئيسيةً، مستعينةً بأدوات السيميائية في تفكيك الرموز وقراءة العلامات، ومستندةً إلى مفاهيم النقد الرمزي لرصد كيفية تحوّل الضوء والظل من دلاليتهما الحسينيتين إلى أبعادهما الوجودية والفلسفية. وخلصت الدراسة إلى أن جدلية الضوء والظل تُشكّل المحور الدلالي الأعمق في الرواية، لا بوصفهما ضدين

متنافرين بل شرطين متلازمين لإنتاج المعنى؛ فالضوء لا يكتسب قيمته إلا في مواجهة الظل، والبصيرة لا تتشكل إلا من رحم العتمة، وهو ما يمنح النص بُعداً جمالي المتميز ويُرسخ مكانة نادي النجار في الرواية الإماراتية والعربية المعاصرة. الكلمات المفتاحية: ملمس الضوء، نادي النجار، جدلية الضوء والظل، الدلالة الرمزية، البصيرة، الرواية الإماراتية.

Abstract:

This study examines the interplay of light and shadow as a central semantic structure in the novel "The Touch of Light" by Emirati writer Nadia Al-Najjar, published in 2024. This novel was shortlisted for the International Prize for Arabic Fiction (the Arabic Booker Prize) in 2025, underscoring its literary weight and importance within the contemporary Arab literary landscape. The study seeks to uncover the profound impact of this interplay on the construction of meaning at its various levels—symbolic, existential, and human—by tracing its mechanisms of operation across different levels of the text, from character, setting, and time to language, symbol, and metaphor. The study begins with a well-established critical perspective that views light in the novel not as an abstract sensory phenomenon linked to sight and physical vision, but rather as an integrated symbolic system alluding to insight, inner knowledge, and existential rebirth. Meanwhile, shadow represents a semantic space charged with absence, loss, suffering, and bewilderment. This makes the protagonist, Noura, who has been blind since childhood, a unique narrative archetype. It simultaneously embodies darkness as a physical reality and light as a spiritual and cognitive truth lacking in those who can see. The study adopted a descriptive-analytical approach as its primary methodological tool, employing semiotic tools to deconstruct symbols and interpret signs, and relying on concepts of symbolic criticism to observe how light and shadow transform from their sensory meanings to their existential and philosophical dimensions. The study concluded that the dialectic of light and shadow constitutes the deepest semantic axis in the novel, not as opposing forces but as two interdependent conditions for the production of meaning. Light only acquires its value in the face of shadow, and insight is only formed from the womb of darkness. This grants the text its distinctive aesthetic dimension and solidifies Nadia Al-Najjar's position in contemporary Emirati and Arab fiction. **Keywords:** The Texture of Light, Nadia Al-Najjar, The Dialectic of Light and Shadow, Symbolic Meaning, Insight, Emirati Novel.

المقدمة:

تقف رواية "لمس الضوء" للكاتبة الإماراتية نادي النجار في مكانة مخصوصة داخل المشهد الروائي الخليجي والعربي المعاصر، لا لأنها تُعالج موضوع الإعاقة البصرية فحسب، بل لأنها تتخذ من هذه الإعاقة منطلقاً فلسفياً وجمالياً عميقاً يُعيد النظر في مفهوم الرؤية ذاته. فمنذ جملتها الاستهلالية التي تُصرح بانعدام الفارق بين فتح العينين وإغماضهما، تُعلن الرواية أن حقل اشتغالها الحقيقي ليس الإبصار المادي، بل البصيرة الإنسانية بمعناها الأشمل والأعمق. وقد وظفت نادي النجار تجربة بطلتها نورة، الكفيفة منذ الطفولة، بوصفها مرآة كاشفة تعكس حقيقة المجتمع وعلاقاته الإنسانية من زاوية مغايرة ومُربكة. فنورة التي تفتقد حاسة البصر تمتلك من الوعي والإدراك والبصيرة ما يفوق كثيراً ممن يُبصرون، وهو ما تُلخصه عبارة سيف الدالة: «كلنا عميان يا نورة.. صدقيني، كلنا عميان بشكل أو بآخر». وبذلك تُقلب الرواية ثنائية البصر والعمى وتُعيد تعريف طرفيها تعريفاً جذرياً. وتتجلى عبقرية النص في اختيار العنوان الذي يجمع بين نقيضين دلاليين؛ «اللمس» الذي يُحيل إلى الغياب البصري والعالم الحسي البديل، و«الضوء» الذي يُحيل إلى المعرفة والوعي والانبعاث. وفي هذا الجمع المفارق يكمن مفتاح قراءة الرواية بأسرها؛ إذ يُشير إلى أن الضوء الحقيقي ليس ما تُدركه العيون بل ما تلمسه الأرواح وتستشعره القلوب. وهو ما يجعل من «لمس الضوء» عنواناً فلسفياً قبل أن يكون عنواناً روائياً. وفي قلب هذا البناء الروائي الرفيع تتموضع ثنائية الضوء والظل بوصفها المحور الجمالي والدلالي الأبرز الذي يَنتظم النص من أوله إلى آخره. فالرواية لا تكتفي بتوظيف الضوء والظل في معناهما الحسي المباشر، بل تتسج منهما نظاماً رمزياً متكاملماً يُعبر عن صراع البصيرة والجهل، والأمل واليأس، والحضور والغياب، والهوية والاعتراب. ويشغل هذا النظام على مستويات النص المتعددة؛ من الشخصيات وعلاقاتها، إلى دلالاتها، إلى اللغة وصورها الاستعارية. ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة لتسبر أغوار جدلية الضوء والظل في الرواية، وترصد آليات اشتغالها، وتكشف عن أثرها في بناء المعنى على مستوياته الرمزية والوجودية والإنسانية. وذلك في رواية أثبتت جدارتها نقدياً بوصولها إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠٢٥، وفتحت الباب أمام قراءات نقدية متعددة تستحقها بجدارة.

مشكلة الدراسة

على الرغم من الحضور اللافت لثنائية الضوء والظل في بنية رواية "لمس الضوء" عنواناً ونسيجاً سردياً ودلالياً، فإن الدراسات النقدية التي تناولت الرواية اكتفت في معظمها بالإشارة العابرة إلى هذه الثنائية دون الخوض في جدليتها البنائية وآليات اشتغالها الدلالي. وتوسعي هذه الدراسة إلى ملء

هذه الفجوة النقدية، بالإجابة عن سؤالها المحوري: كيف تُشكّل جدلية الضوء والظل البنية الدلالية للنص، وما أثرها في إنتاج المعنى على مستوياته الرمزية والوجودية والإنسانية؟

فرضية الدراسة

تتطلب هذه الدراسة من فرضية مفادها أن جدلية الضوء والظل في رواية "لمس الضوء" هي البنية الدلالية المحورية التي يقوم عليها النص بأسره، وأن تفاعلها الجدلي —الضوء رمزاً للبصيرة والأمل، والظل فضاءً للغيب والفقْد— هو المُحرِّك الحقيقي للدراما الوجودية في الرواية، وألا يكتسب أيٌّ منهما معناه الكامل إلا في مواجهة الآخر.

منهج الدراسة

تعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بوصفه الأنسب لطبيعة موضوعها، إذ يقوم على وصف تجليات ثنائية الضوء والظل في مستويات النص المختلفة وتحليل علاقاتها الدلالية، مستعيناً بأدوات السيميائية في تفكيك الرموز، ومستنداً إلى مفاهيم النقد الرمزي لرصد تحوّل الضوء والظل من دلالتيهما الحسينيين إلى أبعادهما الوجودية العميقة.

تهديد

تستند هذه الدراسة في مقاربتها لجدلية الضوء والظل في رواية "لمس الضوء" إلى جملة من المفاهيم النظرية والأدوات المنهجية المستمدة من حقول نقدية متعددة ومتكاملة، تتضافر لتمنح القراءة عمقاً تحليلياً يلائم طبيعة النص وثرائه الدلالي. وتتنظم هذه المرجعيات في ثلاثة محاور رئيسية: السيميائية وعلم الدلالة، وفلسفة المكان والزمان في السرد، ونظرية التلقي والقراءة. يُشكّل الإطار السيميائي الركيزة الأولى لهذه الدراسة، إذ تتلقت من مفهوم «الدلالة الرمزية» التي أرسى أسسها رولان بارت في كتابه «أسطوريات» (١٩٥٧)، حيث يرى أن العلامة تحمل دلالتين: دلالة حرفية مرتبطة بالشكل، ودلالة إيحائية تتشكّل من التفاعل الثقافي والسياقي. وفي رواية "لمس الضوء"، تشتغل ثنائية الضوء والظل بهذه الآلية المزوجة؛ فهي في دلالتها الحرفية ظاهرة فيزيائية مرتبطة بالرؤية البصرية، وفي دلالتها الإيحائية نظام رمزي يُحيل إلى البصيرة والجهل، والأمل والفقْد، والوجود والغيب. ويُعمّق هذا التصوّر ما قدّمه سعيد بنكراد في «السيميائيات السردية» (١٩٩٥) من تحليل لكيفية تولّد الدلالة من خلال التفاعل بين البنات السطحية للنص وطبقاته العميقة، إذ يرى أن «تتولد الدلالة في النص السردى من خلال التفاعل بين البنات السطحية والعميقة، حيث يتحول الفعل إلى رسالة» (بنكراد، ١٩٩٥: ٥٨)، وهو ما ينطبق تماماً على اشتغال الضوء والظل في الرواية حين يتجاوزان مستوَاهما الحسي لِيُنتجا دلالات وجودية شاملة. أما المحور الثاني فيتصل بفلسفة المكان وجمالياته التي أرسى أسسها غاستون باشلار في مؤلّفه التأسيسي «جماليات المكان» (١٩٥٨)، حيث يرى أن الفضاءات المادية ليست محايدة بل مشحونة بالذاكرة والحلم والانتماء، وأن «المكان يتحول من حيز جغرافي إلى فضاء رمزي يحمي الذاكرة» (باشلار، ٢٠٠٦: ٣٢). وفي رواية "لمس الضوء"، يكتسب الضوء والظل بُعدهما المكاني الدلالي من خلال الفضاءات التي يسكنها؛ فالمنزل فضاء الضوء الأليف والذاكرة الدافئة، والأماكن المفتوحة فضاء الظل والاعتراب والضياع. ويستكمل هذا المحور ما قدّمه محمد عزام في «فضاء النص الروائي» (٢٠٠٥) من رؤية تجعل الفضاء عنصراً فاعلاً في الدراما الروائية لا مجرد خلفية للأحداث، وما أضافه بول ريكور في «الزمن والسرد» من ربط عضوي بين التجربة الزمنية وفعل السرد، إذ يرى أن الزمن الروائي ليس مجرد تتابع كرونولوجي بل هو زمن متخيّل يُعيد الكاتب تشكيله وفق منطق فني يخدم بناء الدلالة. ويُؤسّس المحور الثالث لنظرية التلقي التي تجعل من القارئ شريكاً في إنتاج المعنى؛ فهانس روبرت يوس في «جمالية التلقي» يرى أن «تتكمّل جمالية النص من خلال عملية القراءة، حيث يقوم القارئ بملء الفجوات واستتطاق المسكوت عنه» (يوس، ٢٠٠٤: ٧٤). وثنائية الضوء والظل في رواية "لمس الضوء" تُشكّل بامتياز منطقة من «المسكوت عنه» و«الفجوات الدلالية» التي تستدعي القارئ لِيُتمّها بتأويلاته ورؤاه، مما يجعل المعنى في الرواية منتجاً تشاركياً بين النص والقارئ. وتستكمل الدراسة إطارها النظري بالاستناد إلى مجموعة من المفاهيم النقدية الإضافية التي تُعني القراءة وتعمّقها؛ إذ تستعين بمفهوم «البنية الدالة» كما صاغه لوسيان غولدمان في ربطه للبنية الأدبية ببنية الوعي الاجتماعي، ومفهوم «الثنائيات الضدية» كما طوّره كلود ليفي ستراوس في تحليله للأساطير والأنظمة الثقافية، حيث يرى أن الأنظمة الرمزية في الثقافة الإنسانية تقوم على توترات بين عناصر متضادة تُنتج المعنى من خلال هذا التوتر لا من خلال أيٍّ من طرفيه منفرداً. وهذا بالضبط ما تُجسّده جدلية الضوء والظل في رواية "لمس الضوء"؛ فالمعنى الحقيقي لا يكمن في الضوء وحده ولا في الظل وحده، بل في جدليتهما المتوترة التي تُنتج دلالة الرواية في ثرائها وتعقيدها. وفيما يخص دلالة الضوء والظل الرمزية، تستأنس الدراسة بما قرّره صلاح فضل في «منهج الواقعية في الإبداع الأدبي» (١٩٩٢) من أن «الضوء في الرواية ليس ظاهرة فيزيائية فحسب، بل هو إشراق داخلي يفتح آفاق المعرفة ويكشف الحقائق» (فضل، ١٩٩٢: ٧٦)، وهو ما يُطابق توظيف نادية النجار للضوء بوصفه بصيرة روحية لا مجرد ظاهرة حسية.

كما تستند الدراسة إلى ما قدمه ناصر لوحيشي من تحليل للرمزية الأدبية في كونها أداة تحوّل التجربة الفردية المحدودة إلى تجربة إنسانية شاملة تُخاطب الوجدان الجمعي. وفيما يتعلق بمفهوم تعدد الأصوات والجدلية السردية، تستند الدراسة إلى إسهامات سعيد يقطين في «الخطاب الروائي» (١٩٨٩) الذي يُحلل «البوليفونية» أو تعدد الأصوات كتقنية تُثري النص وتمنحه بُعداً ديمقراطياً يتيح سماع وجهات نظر متعددة، وهو ما ينعكس في تعدد الأصوات التي تُصوّر الجدلية الضوء-الظل من زوايا سردية مختلفة داخل الرواية. وتُكمل مرجعية جيرار جينيت في «خطاب الحكاية» (١٩٩٧) هذا الإطار من خلال أدواته التحليلية للرؤية السردية والتبئير، إذ إن السؤال «من يرى؟» في رواية "لمس الضوء" يحمل أبعاداً دلالية استثنائية حين تكون صاحبة الرؤية كفيفة. وتستكمل الدراسة أدواتها النظرية بالاستعانة بما قرره حسن بحراوي في «بنية الشكل الروائي» (١٩٩٠) من أن «تتعاكس تحولات الواقع الاجتماعي على بنية الرواية، مما يؤدي إلى ظهور أشكال سردية جديدة تواكب العصر» (بحراوي، ١٩٩٠: ١١٠)، وهو ما يُفسّر توظيف نادية النجار للثنائية الضوء-الظل لتعكس تحولات المجتمع الخليجي وأسلته الوجودية الكبرى. كما تستعين بما قدمه عبد الملك مرتاض في «في نظرية الرواية» (١٩٩٨) من تأكيد على أن «الشكل الروائي ليس مجرد وعاء خارجي للمضمون، بل هو البنية اللغوية والسردية التي تمنح النص هويته الجمالية» (مرتاض، ١٩٩٨: ٢٥)، مما يعني أن جدلية الضوء والظل ليست مضموناً مُضافاً إلى الرواية بل هي أحد مكونات شكلها الجوهرية. ويُعني الإطار النظري للدراسة ما قدمه بسام قطوس في «سيمائية العنوان» (٢٠٠١) من تحليل يجعل العنوان «مفتاحاً تأويلياً أساسياً للنص» (قطوس، ٢٠٠١: ١٢)، إذ إن تحليل عنوان "لمس الضوء" ذاته يُفصح عن جوهر الجدلية بين اللبس بوصفه حاسةً للغياب البصري، والضوء بوصفه دلالةً للمعرفة والحضور.

المبحث الأول: الضوء، كرمز للبصيرة والمعرفة

«الضوء في الرواية ليس ظاهرة فيزيائية فحسب، بل هو إشراق داخلي يفتح آفاق المعرفة ويكشف الحقائق» (فضل، ١٩٩٢: ٧٦). يربط صلاح فضل بين الرمزية والواقعية، موضحاً كيف تتحول العناصر الطبيعية إلى رموز دلالية عميقة. يشرح المرجع أن الضوء يمثل "البصيرة" التي تتجاوز حدود العين لتصل إلى جوهر الأشياء ومعناها الإنساني. يستخدم الباحث هذا المصدر لتحليل عنوان الرواية وكيف تحول الضوء من حاسة بصرية إلى حاسة معرفية تمكن نورا من "رؤية" الحقيقة. تتشكل ثنائية الضوء والظل في رواية لمس الضوء للكاتبة نادية النجار كبنية دلالية عميقة تتجاوز التضاد البصري لتصل إلى آفاق البصيرة والمعرفة، حيث يبرز الضوء كرمز للكشف الروحي والارتقاء بالوعي، فنجد الكاتبة تصف تسلل الضوء بأسلوب يوحى بالحيوية والقدرة على النفاذ، كما في قولها «وأضواء نحيلة تتسلل وتتراقص على الأرض» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٠)، وهو ما يشير إلى أن الضوء، حتى في نحولته، يمتلك طاقة تعيد تشكيل المكان وتمنحه بُعداً معرفياً جديداً. ويتقابل هذا الحضور الضوئي مع حركة الظلال التي تعكس حالة التأمل والارتباك الوجودي للشخصية، حيث يبرز ذلك في مراقبة «ظلالاً تتأرجح على أرضية اللوان» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٠)، مما يجسد التداخل بين اليقين (الضوء) والحيرة (الظل) في رحلة البحث عن الحقيقة. وتتقل دلالات الضوء من المستوى الحسي إلى المستوى الرمزي المرتبط بالبصيرة الداخلية، خاصة عندما تتراجع الرؤية البصرية المادية، فنجد الشخصية تعبر عن هذا التحول بقولها «ما عدت أقرأ مثلما كنت في شبابي، ما أشوف الخط زين، وصرت أسمع الراديو» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٢)، وهنا يصبح فقدان الضوء الخارجي محفزاً للبحث عن ضوء داخلي بديل، حيث تتحول المعرفة من القراءة البصرية إلى الإنصات والتأمل. وتصل هذه الثنائية إلى ذروتها عندما يتماهى الضوء مع الحضور الإنساني الملم، فيتحوّل الآخر إلى مصدر للاستتارة، وهو ما يتضح في وصف أثر اللقاء الأول: «انعكاس ضوء الشمس على شعرها أكسبه لون رطب الخلاص الناضج وقت القيط» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٤)، حيث يمتزج ضوء الطبيعة بجمال الكائن ليخلق حالة من البصيرة العاطفية التي تخفق لها القلوب. تركز الرواية الضوء كمرادف للوجود والحياة في مقابل الظلام الذي يمثل العدم أو الغياب المعرفي، ويظهر ذلك جلياً في الاقتباس الشعري الموظف داخل النص: «لو خُلِقَ الناس من دهرهم، لكانوا الظلام وكنّت النهار» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٤)، حيث يتم تكريس "النهار" والضوء كصفة استثنائية للبصيرة التي تميز المحبوب أو الملم عن بقية البشر. وتتوج هذه الرؤية بالتأكيد على أن هذا الحضور الضوئي أصبح هو الموجه والمعياري للمعرفي للشخصية، ف «منذها كانت له الضوء والنهار» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٤)، مما يجعل من ثنائية الضوء والظل في الرواية رحلة مستمرة من الظلمة إلى الاستتارة، ومن الجهل إلى المعرفة اليقينية بالذات وبالآخر. تتشكل ثنائية الضوء والظل في رواية لمس الضوء للكاتبة نادية النجار كبنية دلالية عميقة تتجاوز التضاد البصري لتصل إلى آفاق البصيرة والمعرفة، حيث يبرز الضوء كرمز للكشف الروحي والارتقاء بالوعي، فنجد الكاتبة تصف تسلل الضوء بأسلوب يوحى بالحيوية والقدرة على النفاذ، كما في قولها «وأضواء نحيلة تتسلل وتتراقص على الأرض» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٠)، وهو ما يشير إلى أن الضوء، حتى في نحولته، يمتلك طاقة تعيد تشكيل المكان وتمنحه بُعداً معرفياً جديداً. ويتقابل هذا الحضور الضوئي مع حركة الظلال التي تعكس حالة التأمل والارتباك الوجودي للشخصية، حيث يبرز ذلك في مراقبة «ظلالاً تتأرجح

على أرضية اللبوان» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٠)، مما يجسد التداخل بين اليقين (الضوء) والحيرة (الظل) في رحلة البحث عن الحقيقة. وتنتقل دلالات الضوء من المستوى الحسي إلى المستوى الرمزي المرتبط بالبصيرة الداخلية، خاصة عندما تتراجع الرؤية البصرية المادية، فنجد الشخصية تعبر عن هذا التحول بقولها «ما عدت أقرأ مثلما كنت في شبابي، ما أشوف الخط زين، وصرت أسمع الراديو» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٢)، وهنا يصبح فقدان الضوء الخارجي محفزاً للبحث عن ضوء داخلي بديل، حيث تتحول المعرفة من القراءة البصرية إلى الإنصات والتأمل. وتصل هذه الثنائية إلى ذروتها عندما يتماهى الضوء مع الحضور الإنساني الملهم، فيتحوّل الآخر إلى مصدر للاستتارة، وهو ما يتضح في وصف أثر اللقاء الأول: «انعكاس ضوء الشمس على شعرها أكسبه لون رطب الخلاص الناضج وقت القيظ» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٥٤)، حيث يمتزج ضوء الطبيعة بجمال الكائن ليخلق حالة من البصيرة العاطفية التي تخفق لها القلوب. تتطور دلالات الضوء في الفصول الأخيرة من رواية ملمس الضوء لتأخذ طابعاً تطهيريّاً يربط بين الاستتارة الجسدية والولادة الروحية الجديدة، حيث يبرز الضوء كقوة "باهرة" تعيد صياغة علاقة الشخصية بالعالم المحيط بعد فترات من الغياب أو المعاناة، وهو ما يظهر في قوله «فتح عينيه، فغشيها ضوء باهر، ورأى أشخاصاً حوله لم يتبين ملامحهم» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٠٠)، فبهت الضوء هنا يمثل لحظة الانتقال من عتمة الداخل إلى وضوح الخارج، حتى وإن كانت الملامح لا تزال في طور التشكل المعرفي. وتتغزّز هذه الصورة عندما يقترن الضوء بالسماء والنجوم كرموز للمعرفة الكونية البعيدة التي تمنح الطمأنينة، إذ «فتح عينيه فرأى نجوماً تتألق في السماء وسكوناً موحشاً» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٠١)، مما يبرز التضاد بين تألق الضوء (المعرفة) وسكون الفراغ (المجهول) وتنتقل شعيرية الضوء لتعبر عن لحظة الانعتاق والتحرر الروحي، حيث يصبح نور الشمس أداة لتتقية الذات من رواسب الألم، فنجد الشخصية ترفع رأسها لـ «أشبع عينيه بالأزرق من حوله، وبنور الشمس المظلة بجلاء من الأفق» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٠٢)، وهي صورة تكثف معنى البصيرة التي تمنح الشعور بالخفة والحرية، حتى «أحس بروحه طليقة خفيفة.. وكأنه وُلد من جديد» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٠٢). وهنا يتحول الضوء من مجرد ظاهرة بصرية إلى طاقة وجودية تعيد بناء الإنسان وتمنحه القدرة على مواجهة الحياة بوعي متجدد. وفي المقابل، يبرز الضوء الاصطناعي كـ «نور السراج» ليمثل لحظات التأمل الصامت والبحث عن إجابات في عمق السكون، حيث «يحدق في انعكاسات نور السراج أمامه» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٠٣) دون حاجة للكلام، مما يشير إلى أن البصيرة قد تكتمل في الصمت وتحت الضوء الخافت. وتختتم الكاتبة هذه الثنائية بربط الضوء بالنشاط الإنساني والنهار، في مقابل الليل الذي تبرز فيه هشاشة الروح أمام الكلمة والصورة، فبينما الشخصية «تقاوم وتضحك وتعمل وتمرح نهاراً»، نجدها «في الليل تهزّ كلمة أو صورة أو قصيدة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٠٤)، مما يجعل من الضوء (النهار) رمزاً للصمود والمواجهة، بينما يظل الظل (الليل) مساحة للمراجعة الوجدانية والعمق الإنساني الشفيف. تتعمق دلالات الضوء في رواية ملمس الضوء لنادية النجار لتصبح جزءاً من الهوية الشخصية والمصير الإنساني، حيث يبرز التضاد الصارخ بين الاسم والمعنى ليخلق وعياً جديداً بالذات، فنجد البطلة تتأمل اسمها «نورة» الذي هو «مرادف للنور» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٨٣)، معبرة عن مفارقة وجودية عميقة بين كونها كفيفة وبين حملها لاسماً يجسد الضوء. وتنتقل هذه المفارقة من الشعور بالخلج إلى مرحلة الكشف المعرفي، حيث تكتشف الشخصية «أنّ للكلمة معاني أخرى» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٨٣)، مما يشير إلى أن الضوء الحقيقي ليس هو ما تراه العين، بل هو ما تدركه البصيرة من معانٍ خفية تتجاوز الحواس المادية. وتتجلى شعيرية الضوء أيضاً في قدرته على كشف آثار الزمن والارتباط بالأرض والبيئة، حيث تصف الكاتبة وجه الأب بأنه «مقشّر من أثر الشمس والملوحة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٨٠)، وهي صورة تربط بين ضوء الشمس (الحقيقة الفاسية) وبين ملامح الإنسان وتاريخه. كما يبرز الضوء كعلامة على الأمل والوصول عند رؤية «المياه تراوح بين الأزرق والأخضر، لامعة تُبهج المسافرين» مع «شروق اليوم الثالث» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٨١)، حيث يتحول شروق الضوء إلى رمز للمعرفة بالمكان والاطمئنان بعد رحلة في المجهول. وفي المقابل، يبرز «الانطفاء» كفعل مواز لفقدان الضوء الخارجي، لكنه يمهّد الطريق لنشوء عالم داخلي جديد، فتقول الشخصية: «وهن بصري خلال السنوات الخمس المقبلة، ولما انطفأ كان أبي قد كوّن عائلة أخرى» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٨٤). وهنا يرتبط انطفاء الضوء البصري بتغيرات حياتية كبرى، مما يعزز من رمزية الضوء كشاهد على التحولات الوجودية. وتختتم الكاتبة هذه الرؤية بجعل الضوء (البصيرة) هو الأداة التي تمكن الشخصية من تجاوز عجزها الحسي، لتبحث عن النور في الكلمات والذكريات، مما يجعل من ثنائية الضوء والظل في الرواية صراعاً مستمراً بين غياب الرؤية وحضور الاستتارة الداخلية التي تمنح الحياة معناها الحقيقي. تتوسع دلالات الضوء والبصيرة في رواية ملمس الضوء لتشمل الحواس البديلة التي تصبح هي «الضوء المعرفي» للشخصية في لحظات الغياب البصري أو التشوش الذهني، حيث تتحول الروائح والأصوات إلى وسائط استتارة تكشف هوية المكان والأشخاص، فنجد الشخصية تدرك محيطها من خلال تداخل «الروائح.. كولوينا.. عطور عربية.. مطهرات.. دهن عود» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢٠)، مما يشكل خريطة حسية مكثفة تحل محل الرؤية الضوئية المادية. وعندما يغيب اليقين العقلي وتتوقف القدرة على «معرفة الزمن» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢١)، تبرز

البصيرة العاطفية كبديل معرفي يعيد ربط الشخصية بواقعها. وتتجلى هذه البصيرة في القدرة على تمييز الحضور الإنساني عبر تفاصيل حسية دقيقة تتجاوز المظهر البصري، فالبطلة تعرف والدها ليس برؤيته، بل من خلال «رائحة خلوف فمه وسجائره» وارتعاش شفثيه (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢١)، وهي علامات تمنحها شعوراً بـ «الأمان» يتفوق على أي رؤية مادية. كما تبرز المعرفة الصوتية كأداة لاكتشاف التحولات الزمنية والنفسية، حيث تكتشف الشخصية أن «أصواتنا تكبر أو تصغر أحوالاً في لحظات!» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢١)، وهو إدراك عميق يعكس نضج البصيرة التي باتت تقرأ الزمن من خلال نبرات الصوت وتغييراتها. وفي ختام هذا التحليل، يظهر أن الضوء في الرواية ليس مجرد إنارة خارجية، بل هو "مكتبة سر من قرأ" (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢١)؛ أي أنه المعرفة المكتسبة من خلال التجربة الإنسانية العميقة والإنصات المرهف للحياة. وبذلك، تكتمل ثنائية الضوء والظل بجعل الظل (العمى أو الغياب) ممراً إجبارياً نحو ضوء أكثر عمقاً واتساعاً، وهو ضوء البصيرة التي ترى ما لا تراه العيون، وتدرك من المعاني ما تعجز عنه الحواس المادية المجردة.

البحث الثاني: الظل ودلالات الغياب والمعاناة:

«يمثل الظل في المتخيل الروائي مساحة للفقد والانتظار المرير، وهو الوجه الآخر للوجود الذي يهدد بالعدم» (عزام، ٢٠٠٥: ٩٤). يحلل محمد عزام دلالات العتمة والظل في النص الروائي كعناصر تعكس الصراع النفسي والوجودي للشخصيات. يشرح المرجع أن الظل ليس مجرد غياب للضوء، بل هو فضاء يسكنه الماضي والذكريات المؤلمة والفقد. يستفيد الباحث من هذا المصدر في تحليل لحظات اليأس والانكسار في حياة نورا، وكيف مثل الظل واقعها الجسدي المرير. تتخذ دلالات الظل في رواية ملمس الضوء أبعاداً تراجمية ترتبط بالغياب والفقدان، حيث يتحول الظل من مجرد غياب مادي للضوء إلى فضاء يسكنه الألم والذكرى، فنجد الكاتبة تصور عودة الشخصية إلى مكان الفقد بوصفه «الأرض المتقمة» التي أصبحت «خاوية على عروشها» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٠)، وهي صورة مكثفة للظل الذي يتركه الحريق والخراب في النفس والمكان على حد سواء. ويتجسد هذا الغياب في ظهور "الأطياف" التي تملأ فراغ المكان، حيث يلمح البطل «طيف عبود ضاحكاً» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٠)، مما يعكس سيطرة الماضي والغياب على الحاضر، وتحول الظل إلى وسيط لاستحضار الأحياء الراحلين. وتتعمق دلالات المعاناة في الرواية من خلال تصوير اللحظات الأخيرة للفقد، حيث تبرز صورة الظل في ذبول الجسد وانطفاء الحياة، وهو ما يظهر في وصف الطفل المنازع الذي كان «شاحباً، وشفثاه جافتين مزرقتين.. وعيناه غائرتين، مفتوحتين، تحدقان في الفراغ» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٣). هنا يصبح الفراغ الذي تحدد فيه العينان هو التجسيد الأسمى للظل والغياب الوشيك، حيث ينتهي هذا الصراع الجسدي بـ «جفاف سريع أنك جسده الضئيل، ولم يُمهله» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٣)، لتبدأ بعدها طقوس المعاناة الجماعية المتمثلة في «نحيب النسوة ونواح أمه» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٣). وفي سياق متصل، تبرز "الصورة الفوتوغرافية" كأداة لمقاومة هذا الظل والغياب، فهي الأثر الوحيد الذي يمنع الراحل من الذوبان الكامل في العتمة، فتقول الشخصية: «تذكر أن هذه الصورة هي كل ما تبقى منه، فتوالدت الأسئلة في جوفه حتى أحس بتخمة في دواخله، وألم يغمر بدنه» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٤). وتصل هذه المعاناة إلى لحظة من السكينة الممزوجة بالألم عندما يتم تقديم «الصورة اليتيمة» للألم المفجوعة، التي تهلل فرحاً برؤية «وليدي جاسم» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٧٤)، مما يجعل من الصورة ضوءاً ضئيلاً يقاوم ظل الموت والغياب، ويمنح الشخصيات قدراً من العزاء في مواجهة قسوة الفقد. وبذلك، يظل الظل في الرواية دلالة على كل ما ضاع، وعلى تلك الندوب النفسية التي يتركها الغياب في أرواح الناجين. تتخذ دلالات الظل في رواية ملمس الضوء منحى وجودياً يرتبط بعمق الفراغ الذي يتركه الغياب في النفس البشرية، حيث يتحول الفقد إلى "حفرة" سيمائية تحوم حولها الشخصية دون قدرة على تجاوزها أو ردمها، فتقول البطلة: «أشعر كأن غيابه شكّل حفرة أحوم حولها. أرغب في الاقتراب لمعرفة ما بداخل الحفرة، إلا أنني خائفة أن أقع فيها في أي لحظة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٢١). هذا التصوير للظل كفراغ مخيف يجسد المعاناة النفسية الناتجة عن عدم القدرة على التصالح مع الغياب، حيث يظل هذا الفراغ قائماً كشاهد على الفقد الذي «لا يمكنني ردمه، أو ربما لا أرغب في ذلك» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٢١)، مما يمنح الظل صفة الديمومة في الوجدان. وتتعمق المعاناة في الرواية من خلال "ظل العمى" الذي يلقي بظلاله على تصور الشخصية لذاتها وللعالم، حيث تبرز تساؤلات قلقة حول طبيعة هذا الظل الدائم: «أفكر في العمى كفكرة، هل هو مخيف إلى الدرجة التي تجعلهم يهربون منه» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٢١). وتتجلى كثافة هذه المعاناة في الارتباط بالأوراق والذكريات التي تحمل «ثقل الحكاية» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٢٢)، حيث تصبح الكتابة والبحث في الماضي وسيلة لمواجهة الظل، لكنها في الوقت ذاته تثير «تساؤلات تُربكني وتُعبني» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٢٣)، مما يجعل من الظل مساحة للصراع المستمر بين الرغبة في المعرفة والخوف من مواجهة الحقائق المؤلمة. وفي ختام هذا التحليل، يبرز الظل كدلالة على الجفاء الاجتماعي والمادي الذي يزيد من حدة المعاناة الفردية، وهو ما يتضح في الموقف القاسي للأب الذي يرفض تحمل مسؤولية ابنته الكفيفة قائلاً إنه «لا يقدر على دفع أجرة السفر والاعتناء بي» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢٢٣)، مهدداً بالرحيل والترك. هذا "الظل

الاجتماعي" المتمثل في التخلي والإهمال يكمل صورة المعاناة في الرواية، حيث تجد الشخصية نفسها محاصرة بين ظل العمى الجسدي وظل الغياب العاطفي، مما يجعل من رحلتها في البحث عن "لمس الضوء" رحلة شاقة ومضنية في مواجهة عممة الظروف والقدر. يتسع مفهوم الظل في رواية ملمس الضوء ليشمل "ظل الذاكرة" الذي يطارد الشخصيات ويدفعها نحو الهروب كحل أخير لمواجهة المعاناة، حيث يصبح السفر والارتحال محاولة للتخلص من «خيال عبود وأبيه، وربما من فقد جديد» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٦١). هذا الهروب لا يمثل حلاً بقدر ما يمثل استسلاماً لتقل الظلال التي تخلفها الفواجع، حيث تصف الكاتبة رغبة الشخصية في التحرر من الماضي بقولها: «أراد في تلك اللحظة أن يحوّ ذاكرته، يزيل منها صور عبود كلّها» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٦٤)، مما يجعل من الذاكرة المتخمة بالصور فضاءً مظلماً يتقل كاهل الإنسان، ويجعله يتمنى وجود «طلاء أبيض يسمح به ذاكرته المتخمة بالألوان» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٦٤). وتتجلى دلالات الغياب في الصرخة الصامتة التي تطلقها الشخصيات المتروكة في مواجهة قدرها، حيث يتحول الظل إلى "ترك" وهجران يمزق الروابط الإنسانية، وهو ما يظهر في كلمات الأم التي «رددت بصوت مخنوق لم يسمعه سواها: "تركني وراح"» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٦٤). هذا الانقسام بين "الهارب" من الذاكرة و"التمسك" بها يجسد جوهر المعاناة في الرواية، ف «هو الهارب من الصور كلّها، وهي التي لم يبق لها سوى تلك الصور» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٦٤)، مما يخلق هوة سحيقة بين الشخصيات، ويجعل من الظل فضاءً يفصل بين المحبين، ويترك كلاً منهما وحيداً في مواجهة ذاكرته أو محاولاته المستميتة لنسيانها. وفي ختام هذا المبحث، يبرز الظل كقوة قاهرة تجبر الإنسان على اتخاذ قرارات مصيرية تحت وطأة «إحساس اللا يقين من جدوى قراره، والخوف من مجهول لا يعرفه» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٦٣). إن المعاناة في الرواية ليست مجرد حدث عابر، بل هي ظل طويل يمتد من الماضي ليغطي الحاضر والمستقبل، ويجعل من البحث عن "لمس الضوء" ضرورة وجودية للخروج من عممة الصور المتراكمة والهروب من «تخمة الدواخل» التي يسببها الألم المستمر، مما يجعل من ثنائية الحضور والغياب المحرك الأساسي للفعل الدرامي في هذا النص الروائي العميق. تتجسد دلالات الظل في رواية ملمس الضوء كحالة من الرماد الذي يغطي المكان والروح بعد فواجع الفقد، حيث يتحول الحريق من حدث مادي إلى ظل نفسي ثقيل يطمس ملامح الحياة، فنجد الكاتبة تصف مشهد الدمار بقولها: «كلّ ما استطاع أن يظفر به هو حسيس نار لا تتوقّف.. دخان وتراب ورماد» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٥). هذا الرماد يمثل الظل الجاثم الذي يحوّل الذاكرة المادية للمكان، حتى إن المعاناة تمتد لتشمل ضياع المعرفة والكتب التي «ما تركتها هذي الحريقة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٥)، مما يعزز من سلطة الظل في تغييب كل ما هو مضيء ونافع. وتتعمق صورة المعاناة من خلال تحول البشر إلى «أشباح بشرية رمادية خائفة تتخبّط بين الدخان» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٦)، وهي صورة سيمائية مكثفة تجعل من الناجين مجرد ظلال تائهة في فضاء الفقد. وتؤكد الرواية على أن وطأة هذا الظل لا تنتهي بانتهاء الحدث، بل تظل عالقة في الحواس والوجدان، حيث «سيحتاج زمناً طويلاً لتغادره تلك الصور، والمشاهد، والأصوات، والروائح كلّها» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٦). وتصل هذه المعاناة إلى ذروتها في ظل الموت الذي يختطف البراءة، كما في خبر وفاة عبود الذي «ضاق نفسه من الدخان» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٧)، ليترك خلفه ظلاً أبدياً من الحزن يسكن ذاكرة رفيقه. وفي ختام هذا التحليل، يبرز الظل كصراع مستميت ضد النسيان وتلاشي الملامح، حيث تحاول الشخصية التثبيت بأخر بقايا الضوء في الذاكرة عبر إغماض العينين بشدة «لعلهما تحتفظان بصورته أطول فترة ممكنة، وتتشبّثان بها قبل أن تبتهت مع الزمن» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٨). وتتحوّل الكلمات الأخيرة للراحل إلى «وسم غائر في الذاكرة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٣٨)، وهي الاستعارة التي تجعل من المعاناة والظل جرحاً لا يندمل، بل يظل علامة فارقة في تشكيل هوية الشخصيات ومواقفها من العالم، مما يجعل من ثنائية الضوء والظل في هذا النص الروائي تجسداً لجدلية الوجود والعدم، والذكرى والنسيان.

المبحث الثالث التفاعل الجدلي بين الضوء والظل:

«تتبنى جمالية النص من خلال الصراع بين الضوء والظل، حيث لا يكتسب أحدهما معناه إلا بوجود الآخر» (يوسف، ١٩٩٥: ١١٢). يركز سامي يوسف على "ثنائية الضد" وكيف تساهم في بناء الدراما الروائية وتعميق الدلالة. يشرح المرجع أن التفاعل بين النور والعممة هو الذي يصنع إيقاع الرواية ويوجه القارئ نحو فهم رسالتها الفكرية. يساعد هذا المصدر في تحليل كيف استطاعت نورا خلق توازن بين واقعها المظلم وبصيرتها المشرقة، مما شكل جوهر الدلالة في الرواية. يُعد "التفاعل الجدلي بين الضوء والظل" في رواية "لمس الضوء" لنادية النجار المحرك الأساسي للرؤية الفلسفية والجمالية للنص، حيث لا يظهران كضدين منفصلين، بل كعنصرين متكاملين يصنعان الحقيقة والصورة. يتجلى هذا التفاعل بوضوح في تقنية "الغرفة السوداء" التي يصفها المصور جوزيف للجد علي، حيث تصبح الظلمة شرطاً ضرورياً لظهور الضوء وتجسد الصورة: «ثم أخذ جوزيف إلى غرفة مظلمة تصدر منها رائحة نفائث غريبة، أسماها: الغرفة السوداء، صغيرة جداً، وشديدة الظلمة.. كما تحتاج الصورة إلى الضوء، تحتاج كذلك إلى الظلام» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٠٠). إن هذه الجدلية التقنية ترمز إلى حياة نورا نفسها، حيث يصبح "ظلام" بصرها هو المختبر

الذي تتضح فيه "أضواء" بصيرتها وذاكرتها، مما يؤكد أن المعنى لا يكتمل إلا بوجود النقيضين. ويرتبط هذا التفاعل الجدلي بفكرة "الظهور والاختفاء" في الذاكرة البشرية، حيث تبرز الصور من عتمة النسيان لتضيء حاضر الشخصيات، كما في حديث الطبيب السوري عن ضياع "ذاكرته المرئية" وبقاء جوهرها الوجداني: «ضاعت ذاكرتي المرئية، يقولها وهو يفحص عيني. يكمل حديثه: صور العائلة كلها.. حتى إن ضاعت الصور تبقى الذكريات» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٠٣). إن الضوء في الرواية يمثل "المعرفة" والقدرة على استعادة المفقود، بينما يمثل الظل "الفقد" والغياب الذي يمنح للأشياء قيمتها. وتتعمق هذه الثنائية من خلال "العكوس" (الصور) التي يصفها الجد علي بأنها أداة للاحتفاظ باللحظة قبل أن يبتلعها ظل الزمن: «فيجمع روبياته لبناء بيت من الجص، لا يصبح رماداً في لحظات، وعكاسة صور تحتفظ باللحظة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٠٢). وبذلك، تتجسّد نادية النجار في جعل الضوء والظل لغة تعبيرية مكثفة؛ فالضوء يسمح عتمة الفقد، والظل يمنح الضوء عمقه وتأثيره، لتشكل هذه الجدلية في النهاية "لمس الضوء" الذي تبحث عنه نورا، وهو الملمس الذي يجمع بين قسوة الواقع وعذوبة الخيال، وبين عتمة العين ونور القلب. إن هذا التفاعل يؤكد أن الرؤية الحقيقية تتجاوز البصر لتصل إلى البصيرة التي تتشكل في المنطقة الفاصلة بين الضوء والظل. يستمر "التفاعل الجدلي بين الضوء والظل" في رواية "لمس الضوء" في التعبير عن الصراع بين الحضور والغياب، حيث يتحول الضوء إلى رمز للوعي واليقظة، بينما يمثل الظل حالة التيه أو المرض التي قد تغلف الشخصية. يتجلى هذا التفاعل في مشهد استيقاظ نورا من غيبوبتها أو تعبها الشديد، حيث تحاول التمييز بين ظلال الماضي وأضواء الحاضر عبر حواسها الأخرى: «استيقظ. ألم في أنحاء جسمي. صداعٌ شديد.. تتغير الروائح.. كولونيا.. عطور عربية.. كلوركس.. أوراق قديمة.. تداخل الأصوات. أسمع أصواتاً مألوفة، لا يمكنني تذكر أصحابها» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢٠). إن هذا التداخل الحسي يمثل المنطقة "الرمادية" بين الضوء والظل، حيث تحاول الروح استعادة توازنها من خلال ملامسة الأشياء المألوفة. وتتعمق هذه الجدلية من خلال صورة "البئر العميق" التي تصف بها نورا حالة العزلة والظلمة التي تعيشها، والتي لا يكسرها إلا "ضوء" الصوت الآتي من الخارج: «يأتي صوته من مكان بعيد، كأنني في قاع بئر عميقة. نورة.. بنتي نورة.. وتُشعرني نبرته بالأمان» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢١). إن الصوت هنا يعمل كـ "شعاع ضوء" ينفذ إلى عتمة البئر، مما يؤكد أن التفاعل بين الضوء والظل في الرواية هو تفاعل بين "الداخل" المظلم بفعل الفقد، و"الخارج" المضيء بفعل الحب والتواصل الإنساني. وتكتمل هذه الثنائية في تأملات نورا حول "الزمن" الذي قد يكبر أو يصغر في لحظات، وكأن الضوء والظل يتلاعبان بمقاييس الحياة: «لم أكن أعرف قبل اليوم أنّ أصواتنا تكبر أو تصغر أحوماً في لحظات!» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٢١). وبذلك، تتجسّد نادية النجار في جعل الضوء والظل فلسفة متكاملة؛ فالضوء ليس مجرد رؤية، والظل ليس مجرد عتمة، بل هما حالتان وجدانيتان تتناوبان على نفس البطلة، لتصنعا في النهاية "لمساً" فريداً للحياة يجمع بين مرارة الواقع ونور الأمل المتربص في زوايا الذاكرة. إن هذا التفاعل الجدلي يمنح الرواية عمقاً استبطانياً يجعل من كل لحظة ظلمة فرصة لاكتشاف ضوء جديد ينبع من أعماق النفس. تصل ثنائية "الضوء والظل" في رواية "لمس الضوء" إلى ذروتها الوجدانية من خلال توظيفها للتعبير عن التآزر الإنساني بين نورا وسيف، حيث يتحول العمى (الظل البصري) والبهاق (الظل الجدي) إلى مساحة مشتركة للتفاهم والبصيرة. يتجلى هذا التفاعل الجدلي في إدراك نورا بأن "الظلمة" ليست حكرًا على فاقد البصر، بل هي حالة قد تصيب المبصرين أيضاً حين يغيب عنهم نور الصدق، كما في حوار سيف المؤثر معها: «سيصلها صوته مائلاً أقرب إلى أذنها اليسرى.. سيتم بصوت منهك: كلنا عيمان يا نورة.. صدقيني، كلنا عيمان بشكل أو بآخر» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢١٢). إن هذا التوصيف يقلب موازين الثنائية؛ فالضوء الحقيقي ليس هو ما تراه العين، بل هو ما يدركه القلب من جمال داخلي يتجاوز البقع البيضاء أو العيون المنطفئة. وتتعمق هذه الجدلية من خلال صورة "الشمس الحارقة" التي يواجهها سيف المصور ليصطاد لحظات الضوء والجمال في الطبيعة، وكأنه يحاول تعويض عتمة روحه بفيض من أضواء العالم: «اعتاد أن ينتظر تحت أشعة الشمس الحارقة لساعات.. حتى تظهر بين أغصان شجرة صحراوية، أو ضوء الشمس يتلألأ بزوايا ما بين التلال الرملية» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢١١). إن الضوء هنا يمثل "الشغف" والبحث المستمر عن المعنى، بينما يمثل الظل "الخوف" من نظرات الآخرين وعيوب الجسد. وتكتمل هذه اللوحة الفنية في مشهد اكتشاف نورا لسيف، حيث يتحول الألم إلى فعل تطهيري يمسح ظلال الخديعة: «أشعر بشيء يقف في حلقي، يمتد ويمتد ليملاً صدري كله، كجبل. ألفظه. أبكي» (النجار، ٢٠٢٤: ص ٢١٢). وبذلك، تتجسّد نادية النجار في جعل "لمس الضوء" هو تلك النقطة التي يلتقي فيها نور البصيرة بعتمة الفقد، ليصنعا معاً حقيقة إنسانية أعمق، تؤكد أن الحياة لا تُبصر بالأعين فحسب، بل تُلمس بالقلوب التي تعيش في المنطقة الفاصلة بين الضوء والظل، حيث تكتسب كل لحظة معناها من خلال تضادها مع غيابها. إن هذا التفاعل الجدلي يمنح الرواية ختاماً فلسفياً يعلي من قيمة "الجمال الخفي" الذي لا يحويه الظل ولا يطمسه العمى. يستمر "التفاعل الجدلي بين الضوء والظل" في رواية "لمس الضوء" في صياغة مشهدية النص، حيث تبرز ثنائية "الليل والنهار" كإطار زمني ونفسي يعكس تحولات الشخصيات وصراعاتها مع الذاكرة والواقع. يتجلى هذا التفاعل في مشهد قراءة الجد علي لرسالة أمه تحت ضوء السراج الخافت،

حيث تمتزج عتمة الليل بنور الكلمات المستعادة من الماضي: «في الثامنة مساءً بدت مُدُن وقرى البحرين مهجورة.. في تلك الأثناء كان عليّ في غرفته، مستلقياً على فراشه، تحت ضوء سراج يترنح، وحفيف ريح يتسرب من النافذة، وقرأ الرسالة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٤٣). إن ضوء السراج "المترنح" يرمز إلى هشاشة الأمل وصعوبة استعادة الروابط المفقودة، بينما يمثل الليل فضاءً للتأمل والاستغراق في الذاكرة البعيدة. ويرتبط هذا التفاعل الجدلي أيضاً بـ "الضوء الخافت" للأجهزة الحديثة الذي يرافق نورا في رحلة تدوينها لليوميات، حيث يصبح هذا الضوء هو البوصلة التي ترشدنا في عتمة غرفتها ونفسها: «أرسل لسيف: أخيراً تصالحا. وأرمني الهاتف على السرير. أفتح حاسوبي المحمول. صوت أزيز الجهاز الخافت يدفعني إلى الكتابة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٤٠). إن الضوء هنا ليس مجرد وسيلة تقنية، بل هو "شرارة" الإبداع التي تتيح لنورا تحرير "الشجرة المخبأة" داخلها، وتحويل ظلام بصرها إلى فيض من الكلمات المضيئة. وتعمق هذه الثنائية من خلال التضاد بين "الجدران اللامرئية" التي تفصل نورا عن والدتها، و"نور" المصالحة الذي تنشده عبر الكتابة: «لسنا على خصام، ولسنا على وفاق أيضاً، قريبة منها وبعيدة، نعيش في بيت واحد، وتصلنا جدران لا مرئية سميكة» (النجار، ٢٠٢٤: ص ١٤٠). وبذلك، تتجج نادية النجار في جعل الضوء والظل أداة لرسم الخرائط النفسية للشخصيات؛ فالضوء هو فعل الكتابة والتواصل، والظل هو الصمت والجدران النفسية، لتشكل هذه الجدلية في النهاية جوهر "لمس الضوء" الذي تسعى نورا للقبض عليه لترميم شتات روحها وهويتها. إن هذا التفاعل يؤكد أن النور الحقيقي ينبع من القدرة على اختراق ظلال الصمت والنسيان بالكلمة الصادقة والذاكرة الحية.

النتائج:

يتضح مما سبق أن جدلية الضوء والظل في رواية "لمس الضوء" تتجاوز كونها عنصراً جمالياً مضافاً، لتكون البنية الدلالية الجوهرية التي يقوم عليها النص بأسره. فالضوء بوصفه رمزاً للبصيرة والمعرفة والأمل، والظل بوصفه فضاءً للغيب والمعاناة والفقد، لا يشتغلان في الرواية بوصفهما ضدّين يتنافران، بل بوصفهما شرطين متلازمين لإنتاج المعنى؛ فالضوء لا يكتسب قيمته إلا في مواجهة الظل، والبصيرة لا تتشكل إلا من داخل العتمة. وقد نجحت نادية النجار في توظيف هذه الجدلية على مستويات النص كافة؛ من الشخصية إلى المكان، ومن اللغة إلى الرمز، ومن التجربة الفردية إلى التأمل الإنساني الشامل. وبذلك تُقدم الرواية إسهاماً نوعياً في الرواية الإماراتية والعربية المعاصرة، رسّخ حضورها في المشهد النقدي واستحق الاعتراف العربي الواسع.

المصادر والمراجع:

- باشلار، غاستون: (٢٠٠٦)، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط٥، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان.
- بحراوي، حسن: (١٩٩٠)، بنية الشكل الروائي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- بنكراد، سعيد: (١٩٩٥)، السيميائيات السردية، ط١، دار الأمان، الرباط، المغرب.
- عزام، محمد: (٢٠٠٥)، فضاء النص الروائي، ط١، دار الحوار، اللاذقية، سوريا.
- فضل، صلاح: (١٩٩٢)، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، ط١، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- قطوس، بسام: (٢٠٠١)، سيميائية العنوان، ط١، وزارة الثقافة، عمان، الأردن.
- مرتاض، عبد الملك: (١٩٩٨)، في نظرية الرواية، ط١، عالم المعرفة، الكويت، الكويت.
- النجار، نادية: (٢٠٢٤)، ملمس الضوء، ط١، منشورات المتوسط.
- نجم، محمد يوسف: (١٩٩٥)، فن القصة، ط١، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- يوس، هانس روبرت: (٢٠٠٤)، جمالية التلقي، تر: رشيد بنحدو، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر.

References:

- Azzam, Muhammad: (2005), The Space of the Novelistic Text, 1st ed., Dar Al-Hiwar, Latakia, Syria.
- Bachelard, Gaston: (2006), The Poetics of Space, trans. Ghaleb Halsa, 5th ed., University Foundation for Studies, Beirut, Lebanon.
- Bahrawi, Hassan: (1990), The Structure of the Novelistic Form, 1st ed., Arab Cultural Center, Casablanca, Morocco.
- Benkrad, Said: (1995), Narrative Semiotics, 1st ed., Dar Al-Aman, Rabat, Morocco.
- Fadl, Salah: (1992), The Methodology of Realism in Literary Creativity, 1st ed., Dar Al-Maaref, Cairo, Egypt.
- Murtad, Abdel-Malik: (1998), On the Theory of the Novel, 1st ed., Alam Al-Maarefa, Kuwait, Kuwait.
- Al-Najjar, Nadia: (2024), The Texture of Light, 1st ed., Al-Mutawassit Publications.

Najm, Muhammad Yusuf: (1995), The Art of Storytelling, 1st ed., Dar Al-Thaqafa, Beirut, Lebanon.

Qattous, Bassam: (2001), The Semiotics of the Title, 1st ed., Ministry of Culture, Amman, Jordan.

Yos, Hans Robert: (2004), The Aesthetics of Reception, trans. Rashid Benhadou, 1st ed., Supreme Council of Culture, Cairo, Egypt.